I B L A

REVUE DE L'INSTITUT

DES

BELLES LETTRES ARABES

المغرب الاسلامي في مواجهة الطاعون:
الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته
القرنين 8-9هـ / 14-15م

أحمد السعداوي

58 ème Année - N° 175 1995-1

IBLA, 1995, t. 58, n° 175, p. 119-141 .
AHMED SAADAOUI

المغرب الاسلامي في مواجهة الطاعون: الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته القرنين 8-9هـ / 14-15م

أحمد السعداوي

كثيرة هي الأوبئة التي كانت تجتاح المغرب الإسلامي خلال العصور الوسطى. وكانت هذه الأوبئة تخلّف آثارا حادّة في البنية الديموغرافية والاقتصادية للمجتمع الذي كان يواجهها بكثير من الاستسلام والعجز ويرى فيها مصائب تتنزّل بها الاقدار. وهذه الأوبئة غامضة في أذهان عامّة النّاس وحتى في أذهان الأطبّاء والفلاسفة. هذا الغموض في فهم الأوبئة وأسبابها وكيفية انتشارها نتج عنه عجز عن مواجهتها أو الاحتماء منها.

وكان الطاعون أخطر وباء أثّر في تاريخ المغرب الوسيط الاقتصادي والاجتماعي وذلك خاصّة في القرنين 8 و9هـ/ 14 و15م أو بصفة أدقّ بداية من الطاعون الأعظم الذي اكتسح المنطقة في منتصف القرن 8هـ/14م.

وكان الطاعون يفاجئ المجتمع المغربي من حين لآخر، ويولّد انتشاره فزعا ورعبا خاصّا، حتّى أنّ المصادر المعاصرة كثيرا ما تهمل الحديث عن الأوبئة الأخرى (الحمّى بأنواعها، الجذام، الجدريّ، الزّهري...) ولاتتحدث إلاّ عن الطاعون. ويرجع ذلك إلى كون هذا الوباء شديد الفتك قتّال يعمّ بسهولة مناطق ممتدة ويحدث في الجهات التي ينتشر فيها نزيفا ديموغرافيا واقتصاديا تظلّ تعاني منه زمنا طويلا. لكلّ ذلك يرسخ الطاعون في الذاكرة الجماعية وهذا الرسوخ نجد صداه في الكتابات المعاصرة.

I– الطاعون الأعظم وسلسلة الطواعين التي تلته:

أ) الطاعون الأعظم (منتصف القرن 8هـ/14م)

إنّ المؤلّفات التاريخية التي تحدثت عن القرن 8هـ/14م عادة ما تذكر الطاعون الأعظم وربّما أسمته الطاعون الأكبر أو الطاعون الجارف أو الطاعون العام، ولكن المصادر التاريخية المتنوعة لا تتوفّر فيها معطيات كثيرة عن هذا الوباء، بل هي تذكره في سياق حديثها عن سائر الأحداث السياسية والاجتماعية. وإلى جانب المصادر التاريخية المتنوعة نجد جملة من المؤلفات

كتبت حول الطاعون. هذه المؤلّفات التي تؤكد الأهمية التي أصبح يحتلّها الطاعون في حياة النّاس تقدّم معلومات ضافية ودقيقة عن هذا الوباء.

فقد كتب الأندلسي أحمد بن علي بن خاتمة(1) عام 1349م رسالة حول الطاعون الأعظم أسماها: "تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض الوافد". كذلك كتب الأندلسي محمّد بن عبد اللّه بن الخطيب(2) رسالة أخرى حول هذا الوباء أسماهما: "مقنعة السائل عن المرض الهائل" وامتاز هذان المؤلفان بالدقّة و"العلميّة" في وصف المرض وتقديم العلاج والاحتياطات الضرورية لتجنب العدوى. ومن ناحية ثانية كتب المصري أحمد بن حجر العسقلاني (3) "بذل الماعون في فوائد الطاعون" وكتب المصري شهاب الدين أحمد بن يحي بن أبي حجلة (4) كتاب "دفع النقمة في الصلاة على نبيّ الرحمة" وهذان المؤلّفان الشرقيان ركّزا على الجانب الفقهي إذ سجّلا ما ورد من نصوص دينية كلاسكيّة عن الطاعون، أمّا الجانب الطبّي والتاريخي فهو ثانوي فيهما.

اعتمادا على جملة مصادرنا وخاصّة تلك التي سبق ذكرها سنحاول البحث عن مصدر الطاعون الأعظم وتتبع طرق انتشاره كما سنحاول البحث عن الوسائل التي اتّبعت للتصدّي له والنتائج التي خلّفها في البنية الديموغرافية والاقتصادية للمجتمع.

إنّ مصدر الطاعون الأعظم نجده في سباسب (Steppes) آسيا الوسطى التي كانت مخزنا للأوبئة ومنها انتشر نحو الهند والصين، من جهة، ونحو الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط، من جهة ثانية. وكان الأندلسي ابن خاتمة أول من أشار إلى ذلك، فقد ذكر أنّ أحد التّجار المسيحيين القادمين من سمرقند أخبره أنّ الطاعون قد ظهر بتلك المناطق ومنها انتقل إلى

---

1. مخطوطة بالأوسكوريال (اسبانيا) رقم 1785. هذا النّص ترجم جزئيا الى الألمانية انظر : Taha Dinânah: "Die schrift Von Abî Ja'far ibn Ahmed ibn 'Alî ibn Muhammed ibn 'Alî ibn Khâtimah aus Almeriah über die pest," in K. Sudhoff et H.E Sigerist, *Archiv für Geschichte der Medizin*, vol 19 (Leipzig, 1927), pp.27-81.
2. مخطوطة الأوسكوريال رقم 1786 نشر ودرس منذ القرن الفارط Müller M.J., "Ibnulkhatib's Bericht über die Pest." in *Sitzungsberichte der Konigl. Bayerischen Akademie der Wissenschaften zu München* (Munich,1863),Part2,p.1-34 في هذه الدّراسة سوف نستعمل النّص الذي حققه ونشره ميلار(Müller M.J.)
3. مخطوطة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 569
4. مخطوطة بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 18574

الصين وفارس والعراق والأراضي التركية(5). ويؤكد هذا الخبر ابن الخطيب إذ يقول: "ان قيل ما عندكم في أصل هذا الوباء ومذ كم ظهر في الأرض، قلنا هذا الواقع ابتدأ بأرض الخطا والصين في حدود عام أربعة وثلاثين وسبع مائة، حدّث بذلك غير واحد من أولي الرحلة البعيدة والجولان كالشيخ القاضي الحاج أبي عبد الله بن بطوطة وغيره..." (6).

انتشر الطاعون ببلاد المغرب بواسطة السفن القادمة من الشام أو مصر أو ايطاليا وذلك عام 748هـ/ 1347م، أو بداية السنة الموالية (7)، وقد اكتسح الوباء مدينة تونس خلال الحملة المرينية. فلمّا عاد السلطان المريني أبو الحسن إلى تونس بعد هزيمته أمام القبائل العربية قرب القيروان في المعركة التي دارت في بداية سنة 749هـ/أفريل 1348م، وجد الطاعون قد عمّها وأهلك الكثير من سكّانها وأدخل الفوضى والخلل على الحياة الادارية والاقتصادية بالمدينة وارتفعت الوفيات حتّى أنّه في شهر ربيع الأول عام 749هـ/ جوان 1349م كان يموت يوميا ألف شخص حسب بعض المصادر(8). كما أن ابن خاتمة ذكر أنه في بعض الأيام بلغ عدد الموتى بمدينة تونس 1202 وبمدينة تلمسان 700 وبلنسيه 1500 وبميورقة 1252 (24 ماي 1348) والمرية 70 (9) .

ويبدو أنّ الجيش المريني لّما غادر افريقية متوجّها إلى فاس ساهم في نشر الطاعون على طول الطريق التي سلكها، ولكن هذا لايعني أنّ المرض انتقل إلى تلك الجهات أي المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مع الجيش المريني اذ كان الوباء وصل من قبل هذه المناطق كما ذكرنا عن طريق الموانئ البحرية. وتواصل الوباء في افريقية والمغرب سنة 750هـ/1349م فيذكرابن بطوطة أن أمه ماتت به خلال هذه السنة بمدينة تازا بالمغرب الأقصى(10)، وتحدد

---

5. ابن خاتمة، *التحصيل*، ورقة 68 ب.
6. ابن الخطيب، *مقنعة السائل*، ص 8.
7. ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج 7، ص 812، 834، 837، 849؛ ابن حجر العسقلاني، *الدرر الكامنة*، القاهرة 1966، ج 4، ص 33-34.
Dols W. M., *The black death*, p. 63-65.
8. ابن الشماع، *الأدلة*، ص 97-98؛ ابن خلدون عبد الرحمان، *كتاب العبر*، ج 7، ص 849. ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم، *المؤنس في أخبار افريقية وتونس*، تونس 1967، ص 147. ويذكر التباهي، 1948، ص 155-157، متحدثا عن الطاعون الأعظم ما يلي:"وقد شاهدنا منه غرائب يقصر اللسان عن جملة أجزائها. ومنها انتهى عدد الأموات فب تلك الملحمة الوبائية بمالقة إلى ما يزيد في اليوم على الألف، بقي بعد ذلك أشهرا حتى خلت الدور، وعمرت القبور..."
9. ترجمة Dinânah Taha, 1927, p.41.
10. ابن بطوطة، *الرحلة*، بيروت1964، ص 657.

كذلك في الأندلس سنة751 هـ/ مارس 1350م حيث أهلك عددا من جيش الفنسو ملك قشتالة الذي كان يحاصر المسلمين في جبل طارق(11).

ورغم تجزؤ الأرض المغربية لكثرة السلاسل الجبلية وامتداد الصّحاري فإنّ الطاعون الأعظم كان من الأوبئة النادرة التي امتازت بالشّمول يقول ابن الخطيب: "ثمّ يتّصل الفساد حسبما قدّمنا، وشمل على هذه الوتيرة أكثر المعمور فحرز ما هلك من نوع الانسان به في هذا الوقت المحدود بسبعة الأعشار، و لم يتقدّم فيما اتّصل بأولي الاطلاّع من تواريخ الأمم وباء بلغ مبلغه من أخذه ما بين لابتي المشرق والمغرب واتّصاله بالجزائر المنقطعة في البحر واستصاله أهل البيت والقرية على سبيل واحدة، يتعلق بالنّاس تعلق النّار بالحلفاء والهشيم بادنى ملابسه من إلمام بمريض أو ربما بمباشرة ثوبه وآنيته" (12). ولقد تميّز الطاعون الأعظم كما هو ثابت في مصادرنا بالقوة والشمول مما جعل نتائجه الديموغرافية والاقتصادية هامّة وبذلك لايمكن الاستغناء عن درس هذا الوباء التاريخي لفهم التحول الذي شهده الاقتصاد والمجتمع المغربي في منتصف القرن 8هـ / 14م، حتى ان ابن خلدون اعتبر التدمير الذي ألحقه بالمجتمع المغربي لا يقل عن التخريب والتدمير الذي خلفه الغزو الهلالي.

وكان عدد الهلكى مرتفعا بإجماع المصادر، شمل ثلث أو نصف سكان المناطق المصابة وربما تجاوز ذلك وذلك حسب مصادر موثوق بها مثل ابن خلدون الذي فقد أمه وأباه وعددا من أساتذته في الطاعون أو ابن الخطيب الذي ذكر ان الوباء "شمل على هذه الوتيرة أكثر المعمور فحرز ما هلك من نوع الانسان بسبعة الأعشار و لم بتقدم فيما اتصل باولى الاطلاع من تواريخ الأمم خبر وباء بلغ مبلغه من أخذه ما بين لابتي المشرق والمغرب واتصاله بالجزائر المنقطعة في البحر واستئصاله أهل البيت والقرية على سبيل واحدة يتعلق بالناس تعلق النّار بالهشيم بأدنى ملابسه، من إلمام بمريض أو بمباشرة ثوبه وآنيته وفيما ظهر فيه نفث الدم أشد وعند قبض النفوس أعظم"(13). ومن الطبيعي أن ارتفاع عدد الهلكى يعطل وربما يشلّ النشاطات الاقتصادية، فهو يمنع الزرع والحصاد ويؤدي الى اهمال المواشي والدواب يشير

---

11. ابن خلدون، *كتاب العبر*، ج7،ص679. Zigler H, 1969, p.114.
12. ابن الخطيب، *مقنعة السائل*، ص 9.
13. ابن الخطيب، *مقنعة السائل*، ص 9

المقريزي إلى ذلك بوضوح يقول في السلوك: "وعم الموتان أرض افريقية بأسرها، جبالها وصحاريها ومدنها، وجافت من الموت وبقيت أموال العربان سائبة لاتجد من يرعاها"(14).

وكثرة الموتى تعني قلة اليد العاملة في المدينة وفي الريف، وهذا يؤثر سلبيا على إنتاج المواد الغذائية فتصبح نادرة مما يولد المجاعة وفعلا فقد كان الطاعون الأعظم بافريقية مصحوبا بالمجاعة وبارتفاع السعر حتى بيع قفيز القمح بثمانيّة دنانير كما ذكر ابن الشماع(15).

ولم تكن هذه الضربة القاسية التي أصابت الاقتصاد والمجتمع المغربي نتيجة الوباء ذات مفعول ظرفيّ، بل أن الطاعون الاعظم كان من العلامات الدّالة على التحولات العميقة التي كانت تدفع بالمجتمع المغربي إلى الركود والضعف والتراجع. وتفطن ابن خلدون الذي عاصر الطاعون الأعظم إلى العلاقة بين مثل هذه الكارثة والتحوّلات الإجتماعية بل الحضارية التي شهدها بلاد المغرب في عهده يقول في المقدمة: "وأمّا لهذا العهد وهو أواخر المائة الثامنة (أواخر القرن الرابع عشر ميلادي) فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة". وهذا التحول ابتدأ حسب ابن خلدون في القرن 5هـ/11م مع غزو القبائل الهلالية للمغرب العربي وتعمّق هذا التحول في منتصف القرن 8هـ/14م وذلك نتيجة "الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدّول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وفل من حدّها وأوهن من سلطانها، وتداعت الى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وآنتقض عمران الأرض بانتفاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدلت المساكن، وكأنّي بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنّما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة. واللّه وارث الأرض ومن عليها واذا تبدّلت الأحوال جملة فكأنّما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنّه خلق جديد، ونشأة مستأنفة وعالم محدث" (16).

وهذا النّص يكفي وحده للدلالة على الأهمية التي يكتسيها الطاعون الأعظم بالنسبة لكل من يهتم بدراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمغرب الإسلامي خلال الفترة

---

14. المقريزي أحمد بن علي، *كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك*، القاهرة 1958، قسم II ج 63 ص 777.
15. ابن الشماع، *الأدلة*، ص 98..
16. ابن خلدون عبد الرحمان، *كتاب العبر*، ج1 ص. 52-53.

الأخيرة للعصر الوسيط. وتزداد أهمية هذا الوباء عندما نعلم أنّه كان منطلقا لسلسلة من الطواعين استمرت حتى القرن التاسع عشر.

ب) سلسلة الطواعين التي تلت الطاعون الأعظم:

اعتمادا على مصادرنا أحصينا أكثر من عشرة طواعين وقعت ببلاد المغرب خلال الفترة التي ابتدأت بالطاعون الأعظم واستمرت حتى منتهى القرن 9هـ/15م، أي على طول قرن ونصف القرن وهو معدل قريب من المعدل الذي قدّمه الفرنسي بيربان (Biraben) في دراسة عامة للطاعون بفرنسا والبلدان الأروبيّة والمتوسطيّة.(17)

على طول هذه الفترة نسجل عودة الطاعون كل عشرة أو عشرين سنة: (748-751ه/1347-1350م)، 766ه/1364م، 769ه/1367م، 796ه/1393م، 805ه/1402م، (815-818ه/1412-1415م)، (844-847ه/1440-1443م)، (856-857هـ/1452-1453م)، (871-873ه/1466-1468م)، (898-899ه/1492-1493م)، (905-906هـ/1498-1499م).

الطواعين التي جاءت بعد الطاعون الأعظم وكانت عبارة عن إستفاقة للوباء الأصلي، وهي بذلك أقل فتكا منه، بل إن بعضها كان محليّا ذا نتائج محدودة، على أن بعضها الآخر كان كثير الفتك فطاعون 844-847هـ/1440-1443م بالإضافة إلى عامّة الناس "هلك فيه جمع من العلماء والإعيان"(18). وطاعون 871-873هـ/1466-1468م الذي ظهر بالأندلس(19) ثم انتشر بافريقيّة كان من أعظم أوبئة القرن التاسع الهجري وقد استمر هذا الطّاعون بتونس طيلة السنة من شهر ذي القعدة عام 872هـ/جوان1468 إلى نفس الشهر من السنة الموالية "ولم يزل يتزايد، كما ذكر الزركشي، حتى بلغ عدد الهلكى به الفا كل يوم"(20). أمّا ابن أبي دينار فيذكر أن الوباء عظم بتونس "وقيل أنه بلغ عدد الموتى به إلى أربعة عشر ألفا في كل يوم، وحصر في الزمام أربعمائة ألف غدا من لم يدخل في الزمن نحو

17. Biraben, Jean-Noël, *Les hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, Paris 1975-1976.

18. الزركشي، 1966 ، ص141.

19. Lévi-Provençal E. 1931, t1, p.175.

20. الزركشي،1966 ، ص158.

المائة ألف (21). أما أدورن Adorne الرحالة الهولندي الذي زار تونس سنتين بعد هذا الوباء فقد قدر عدد من مات بالعاصمة خلال الطاعون بماتين وستين ألفا (22).

جدول أهم الأوبئة والطواعين بالمغرب الإسلامي خلال القرنين 8-9ه/14-15م

التاريخ		المكان	النوعية	الشدة والواقع	المصادر
الهجري	الميلادي				
751-748	1350-1347	إفريقية والمغرب والأندلس	الطاعون العام	وعمّ الموت جزيرة الأندلس، وعمّ الموتان أرض إفريقية بأسرها جبالها وصحاريها ومدنها. حرز ما هلك من نوع الإنسان به بسبعة أعشار.	ابن الخطيب، 1863، ص 9 ابن الخطيب 1928، ج 2، ص53 ابن خاتمة المخطوط، ابن حجر المخطوط ابن خلدون 1967-1968، ج 1، ص 53، ج 7، ص 517 ، 812 ، 837، 849. المقريزي 1948، ج 2، ق III، ص 777 النباهي 1948، ص 154-157 و 161-163 ابن قنفد، 1983، ص 354-356
766	1364	تونس	طاعون	هلك فيه ابن تافرجين	ابن الشماع، 1984، ص 105
769	1367	غرناطة	وباء		ابن الخطيب، 1928، ج 2، ص 53
796	1393	إفريقية	طاعون		الأبيّ، 1902، ج 6، ص 33-34
805	1402	تونس وجهاتها	وباء		ابن قنفد، 1968، ص 199
815	1412	فاس	طاعون	الطاعون والمجاعة	L'Africain J.L 1956 p 171-172, note 70
818	1415	مكناس	طاعون	مات به الشيخ عمر بن الفتوح	ابن غازي، 1964، ص 59 ابن مريم، 1908، ص 264
847-844	1443-1440	إفريقية والمغرب والأندلس	طاعون	الوباء العظيم هلك فيه جمع من العلماء والأعيان	الزركشي، 1966، ص 141 ابن مريم، 1908، ص 43 الطنبوكتي، 1911، ص 80
857-856	1453-1452	المغرب وإفرقية	وباء		الزركشي، 1966، ص 147 الطنبوكتي، 1911، ص 80
873-871	1468-1466	الأندلس والمغرب وإفريقية	طاعون	ولم يزل يتزايد بتونس حتى بلغ ألفا كل يوم	Lévi-Provencal, 1931, T 1, p 175 Brunschvig R, 1936 p 200 الزركشي 1966، ص 158 ابن مريم، 1908، ص 224 السراج، 1984، ج 2، ص 200 ابن أبي دينار، 1967، ص 158
899-898	1493-1492	إفريقية وفاس	وباء	وباء عظيم مات فيه خلق كثيرون ومات به السلطان أبو زكريا	ابن أبي دينار، 1967، ص 159 السّراج، 1984، ج 2، ص 201 Chronique juive cité par Semmach V.D, 1934, p 92

21. ابن أبي دينار، 1967، ص158, الرقم الذي يقدمه المؤلف مبالغ فيه بدون شك.

22. Brunschvig R., 1936, p.200.

وقد انتهى القرن التاسع الهجري بوباء عظيم وقع عام 898-899هـ/1492-1493م مات فيه خلق كثيرون ومات به السلطان الحفصي أبو زكريا في 9 من شعبان"(23).بماذا يمكن تفسير هذا التواتر وهذا الظهور المتكرر للطاعون؟

تفطن مفكروا القرون الوسطى إلى هذه العودة الدورية للوباء وكان الحسن الوزان أكثرهم وضوحا في بسط هذه الظاهرة يقول: "إنّ الوباء يظهر في بلاد البربر على رأس كل عشرة سنوات أو خمس عشرة أو خمس وعشرين سنة، وعندما يأتي يذهب بالعدد العديد من النّاس".(24)

هذه العودة الدورية ناتجة عن عدة عوامل متداخلة لايكفي الواحد منها لتفسير هذه الظاهرة، نكتفي هنا بطرح ثلاثة من هذه العوامل تبدو لنا الاساسية:

1) الحصانة: ذلك أنّ من يصاب بالطاعون ثم يعافى من مرضه يصاب بحصانة ضدّ هذا الوباء ويستمر فعل الحصانة هذا على مدى الجيل الذي أصيب بالطاعون. **2) المجاعات:** تذكر مصادرنا عدّة أوبئة مصحوبة بالمجاعة فماهي نوعية العلاقة بين الظاهرتين؟

يبدو أن تتالي عدّة سنوات من القحط والشدة يهيء الأرضية للطاعون وغيره من الأمراض، ذلك أنّ نقص التغذية يجعل السّكان أكثر قابلية للإصابة بالعدوى، وأقل صمودا في مواجهة المرض. ولكن الوباء هو الآخر قد يسبب المجاعة والشدّة والموت المرتفع في صفوف القوى العاملة وكذلك تقلص التبادل التجاري خاصّة استيراد المواد الغذائية من حبوب وتمور وغيرها يولّد المجاعة. لذلك لانستغرب أن تتحدث مصادرنا عن: "قحط شديد ووباء كثير..." "وباء وغلاء عظيم..." "الوباء والجوع..." "المجاعة الشديدة والوباء العظيم..."

ولكن هذا الالتقاء بين الظاهرتين لايعني علاقة الزامية بينهما، اذ أحصينا كثيرا من المجاعات لم تكن مصحوبة بالوباء، كذلك تذكر مصادرنا بعض الأوبئة حدثت في سنوات رخاء. فالمجاعة وان لم تكن من العوامل المحددة لظهور الوباء فهي ولاشك من العوامل التي تسهل انتشاره وتهيء له الأرضية التي تجعله شديد الوقع قتّالا.

---

23 ابن أبي دينار، *المؤنس*، 1967 ، ص159 .

24. L'Africain J.-L. 1956, p. 102.

3) مخازن الفيروس: (Réservoirs de virus) ولعلّ أهم عامل يمكّن من تفسير العودة الدورية للطاعون يكمن في مخازن الفيروس وهذا التفسير يدعمه علم الأمراض الحديث، اذ أثبتت الدّراسات الطبّية أنّ المغرب الإسلامي يحتوي على أكثر من مخزن للفيروس. كذلك يرى بيرابان (Biraben) أنّ عودة الوباء كل 10 أو 12 سنة مرتبط بسفع الشمس (Les tâches solaires) التي تؤثر على كثرة القواضم البرية. تتولى براغيث هذه القواضم نقل الفيروس منها إلى الانسان(25). إذا فالظهور الدوري للطاعون بالمغرب العربي ما هو إلاّ انعكاس لظهور هذا الوباء بين قواضم المنطقة أو قواضم المناطق المحاورة.

II- الطاعون في إطاره الجغرافي:

انّ جغرافية شمال افريقيا الطبيعية والسكانية تمكننا من فهم الكثير فيما يخصّ انتشار الطاعون وغيره من الأوبئة في مختلف مناطق بلاد افريقية والمغرب.

فهناك عوامل تحدّ من انتشار الوباء وتجعله محلّيا في كثير من الأحيان، منها كثرة السلاسل الجبلية التيّ تعزل المناطق عن بعضها وتحدّ بالتالي من تبادل العدوى بينها. فسكّان جبال الأطلس أو جبال الرّيف أو جبال القبائل يكونون في كثير من الأحيان في حمى من الأوبئة المنتشرة في السهول المحيطة.

كذلك امتداد الصحاري على مساحات شاسعة من بلاد إفريقية والمغرب يحدّ من انتشار الوباء، والقبائل التي تسكن الواحات أو تنتقل عبر الصحراء والسباسب، هي الأخرى تكون في كثير من الأحيان في حمى من الأوبئة التي تكتسح المناطق الشمالية الساحلية، خاصّة أنّ المناطق الجنوبية الصحراوية تميّزت دائما بضعف الكثافة السّكانية مما يحدّ من كثرة الاحتكاك بين السّكان وبالتالي يحدّ من انتشار الأمراض المعدية.

وقد لاحظ الحسن الوزان هذا الاختلاف من حيث انتشار الوباء بين المناطق الشمالية الساحلية والمناطق الجنوبية الصحراوية بالمغرب العربي، فذكر أنّ الطواعين تظهر بصورة دورية في المناطق الشمالية ويسميها أرض البربر كل عشرة أو خمسة عشرة أو خمس وعشرين سنة ، في حين أنها لم تظهر بالمناطق الجنوبية الصحراوية ويسميها بنوميديا منذ أكثر من قرن أي

25. Biraben, J.N., *Les hommes et la peste*, t.1, p.134.

طيلة القرن 9هـ/15م(26). وأثناء حديثه عن الطاعون الأعظم ذكر ابن الخطيب أنّ "الأخبار تواترت بسلامة أماكن لا تطؤها الطرق ومنقطعة عن الناس"(27).

هناك عوامل أخرى جغرافية تساهم في نشر الوباء وجلبه الى المغرب من مناطق أخرى. من هذه العوامل البحر الذي يحيط بالمنطقة من ثلاث جهات، ذلك أنّ الموانيء البحرية في القرون الوسطى والعصر الحديث كانت أسرع طريق لنقل العدوى، اذ أنّ السفن الواردة على المغرب سواء ذلك من أروبا: من الموانيء الايطالية أو الفرنسية أو من الشرق وخاصّة من الاسكندرية أو من موانئ الشام تحمل معها الفيروس امّا بواسطة الفئران والقواضم التي تتحول من السفن الراسية بالموانئ إلى الرصيف، كذلك ينتقل الفيروس عن طريق من هو مصاب بالوباء من البحّارة.

وقد تفطّن المعاصرون إلى خطورة العدوى التي تحملها السفن فقد ذكر ابن الخطيب أنّ وقوع المرض "في مدن السواحل المستصحبة حال السلامة إلى أن يحلّ بها في البحر من عدوة أخرى قد شاع عنها خبر الوباء رجل موءف فيكون تاريخ ظهور المرض بها مقارنا لحلوله"(28).

وكانت بذلك المدن المينائية عرضة أكثر من غيرها لسائر الأوبئة وكانت جلّ الطواعين التي اكتسحت المغرب طواعين بحرية تظهر في الموانئ ومنها تنتشر عبر المناطق الأخرى.

لذلك كثيرا ما تشير المصادر إلى وجود الوباء بالموانئ الكبرى مثل ميناء تونس، بنزرت، صفاقس، المهدية، سوسة، الجزائر، وهران، سبتة، طنجة أو المدن القريبة من الموانئ مثل قسنطينة، تلمسان، فاس ومراكش.

على عكس ذلك يقلّ الطاعون بالمدن الداخلية وخاصّة المدن الصحراوية البعيدة عن السواحل.

إلى جانب الموانئ لعبت شبكة الطرقات البرية دورا كبيرا في نقل الوباء من منطقة إلى أخرى، فقوافل الحجاج والتّجار القادمون من الشرق عبر مصر وبرقة كثيرا ما تنشر الوباء في

---

26. L'Africain J.-L., 1956, p. 102.

27. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 7.
28. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 7.

طريق مرورها. كذلك القوافل المتنقلة بين شرقي المغرب وغربيه بالاضافة الى الجيوش تلعب نفس الدور، وكنّا ذكرنا كيف انتقل الطاعون الأعظم من تونس إلى المغرب الأوسط والأقصى صحبة جنود السلطان المريني أبي الحسن.

كذلك التنقلات لزيارة الأضرحة والأولياء تلعب دورا هاما في نشر الوباء خاصّة في فترات الشّدة وكثرة الموت والمصائب يزداد اقبال النّاس على مثل هذه الزيارات.

أمّا الترحال فكان يلعب في نفس الوقت دورا سلبيا وايجابيا في نشر الطاعون. فهو يمكن أن يعطّل انتشار العدوى اذ بامكان القبائل الرّحل أن تفر أمام المرض وتتجنب الوباء وتسكن المناطق المعزولة الصحراوية وتبتعد عن المناطق الموبوءة، وفعلا فقد سلمت بعض القبائل الرحّل من المرض خلال الطاعون الأعظم فقد ذكر ابن الخطيب أنه: "صحّ النقل بسلامة أهل العمود والرّحالين من العرب بافريقية وغيرها لعدم انحصار الهواء وقلة تمكن الفساد منه"(29) كما يمكن للترحال أن يسهل انتشار الوباء وذلك بالانتقال مع الرحل من منطقة موبؤة إلى منطقة سليمة.

III- الطاعون: الوسط الثقافي والاجتماعي:

انّ مسلمي نهاية القرون الوسطى، لّما واجهوا الطاعون الأعظم وسلسلة الطواعين التي تبعته عادوا إلى تراث العصور الاسلامية الأولى واتّبعوا التقاليد الدينية والأبحاث الطبية التي ترجع إلى تلك العهود، لذلك أهم ما تقدمه مصادرنا ماهو إلاّ انعكاس لمجموع النصوص الكلاسيكية حول الموضوع (أقوال الرسول والصحابة وأفعالهم) وكذلك النصوص الطبية الكلاسيكية (ابن سينا، ابن رشد وابن الجزار).

وتقوم المصادر المعاصرة لطواعين القرن 8-9هـ /14-15م بجمع هذه النصوص وتقديمها مع ذكر بعض الاضافات المتأخرة التي كثيرا ما أدّت إلى اختلاف ومجادلة حادة بين الفقهاء حول شرعيتها. نذكر من هذه الاضافات الصلاة الجماعية عند حدوث الطاعون، او الصلاة على النبيّ لدفع الوباء او الصوم.

المصادر الأندلسية المعاصرة كانت أكثر عقلانية من المصادر الأخرى، فقد تخلصت نسبيا من قبضة النصوص الدينية الكلاسيكية واعتمد مؤلفوها في أبحاثهم على طريقة الملاحظة

29. ابن الخطيب، *مقنعة السائل*، ص 7.

والاستنتاج الذي ينطلق من المشاهدة. سنقوم بعرض الموقفين وذلك خلال حديثنا عن وصف المعاصرين للطاعون وحديثهم عن أسبابه وطرق علاجه.

1) في تشخيص الطاعون: نعود فنذكر أنّ الطاعون في نصوص القرون الوسطى يعني عدّة أوبئة فالطاعون هو الموت العام كالوباء، والطاعون هو الوباء والمرض العام والطاعون هو الموت من الوباء والرجس والعذاب والاثم والذنب.

هذا الخلط بين الطاعون والوباء واضح خاصّة في الكتابات السابقة للطاعون العام. ولكن ابتداء من الطاعون الأعظم بدأ الكتاب يميزون اللّفظين. فابن أبي حجلة يتساءل: هل هما مترادفان أم متغايران؟ وهو لايحسم الموقف بل يورد أقوالا تخلط بين المصطلحين وأقوالا أخرى تفرق بينهما. "وقالوا كل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعون"(30). هذا الخلط يكون عند سرد أقوال السلف ولكن مع التقدم في التعريف بالطاعون يبدأ التفريق بين اللّفظين بل إنّ أبي حجر العسقلاني يكتب فصلا كاملا يسميه: "البيان الدّال على أنّ الطاعون غير مرادف للوباء وانّ اطلاقه عليه انّما هو بطريق المجاز لكونه أخصّ منه" وذلك ليؤكد السبب السحري الغيبي للطاعون الذي هو طعن الجنّ في حين أنّ الوباء سببه تعفن الهواء(31).

وقد زامن ابن أبي حجلة وابن حجر العسقلاني عدّة طواعين لذلك عندما يتخلصان من سرد النصوص القديمة يقدمان وصفا دقيقا للطاعون وخاصّة الطاعون الغددي الذي كان أكثر الطواعين انتشارا.

وفي التعريف يلتجأ إلى التشبيه لتقريب الصورة، فهو "غدّة كغدّة البعير تخرج في المرافق والاباط"، وهو "قريب من الجذام". ثمّ يصبح الوصف أكثر دقّة، فالطاعون "حبّة تخرج في كل طيّ من الجسد" وهو "ورم مؤلم ويحمر حمرة بنفسجية". وتنتج عن الاصابة بالطّاعون مجموعة من العلامات العامّة، حمّى، اعياء، عرق مصحوب بقلق وطفة ورعدة، القيئ، الغثيان، الخفقان الشديد. الدمل هي الأخرى من العلامات المميزة للطاعون عن سائر الأمراض وتذكرها أغلب مصادرنا، وربّما أسمتها الغدد أو الخراج وهي "تظهر في كل طيّ من الجسد،

---

30. ابن أبي حجلة، *دفع النقمة*، ورقة 53ب.
31. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 8 ب.

وتحت الابط وخلف الاذن وربّما عمت البدن"(32). وذكر ابن خاتمة انّ هذه الدمل أو الغدد تنمو بنمو الحمّى والرعدة.

ومن علامات الطاعون التي ذكرها ابن خاتمة وابن الخطيب النزيف ونفث الدم والبيلة الدموية، وذكر ابن الخطيب أنّ هذه العلامات دالة على نهاية المريض الحتمية.

كذلك أشار ابن خاتمة الى علامات أخرى مميزة للطاعون منها ارتفاع قوّة النبض والحمّى المصحوبة بالتشجنج والاحساس بالبرودة في الأطراف واسوداد اللّسان وانتفاخ اللّثة.

هذه مجموع الأوصاف التي تقدّمها مصادرنا وهي في أغلبها أوصاف للطاعون الغددي، على أنّ بعض هذه الأوصاف ينطبق على أنواع أخرى من ذلك نفث الدّم، والحمّى الشديدة وهما من خصائص الطاعون الرئوي.

أمّا الاغماء والاضطرابات العصبية فهي من مواصفات الطاعون التسمّمي وقد أشار ابن خاتمة اليها. ومصادرنا تعطي عادة أوصاف نوعي الطاعون الشديدي الانتشار ونعني بهما، الطاعون الغددي والطاعون الرئوي.

الاّ أنّ ابن حجلة يذكر أربعة أنواع من الطواعين:(33)

1- طاعون ذا غدد تخرج في المغابن.

2- طاعون ذا غدد تخرج في أيّ عضو من البدن.

3- طاعون يطفي الروح، الذبحة (الرئوي)

4- طاعون يصيب عضو فيتآكل: مفعوله يمثال مفعول الجذام (التسمّمي).

وكان الطاعون الدملي وتسمية المصار أحيانا الغددي أو الخراجي أكثر الطواعين انتشارا، على أنّ الطاعون الرئوي كان يخافه النّاس وكان حدوثه يثير الرعب والفزع الشديد، لأنّ الاصابة به تعني الموت المحقق كما أشار الى ذلك ابن أبي حجلة بقوله: "انّه يتبع أهل الدّار فمن بصق أحد منهم دما تحققوا كلهم عدما".(34)

---

32. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 8 أ.
33. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 8أ-8ب.
34. ابن أبي حجلة، *دفع النقمة*، ورقة 107ب.

وتحت الابط وخلف الاذن وربّما عمت البدن"(32). وذكر ابن خاتمة انّ هذه الدمل أو الغدد تنمو بنمو الحمّى والرعدة.

ومن علامات الطاعون التي ذكرها ابن خاتمة وابن الخطيب النزيف ونفث الدم والبيلة الدموية، وذكر ابن الخطيب أنّ هذه العلامات دالة على نهاية المريض الحتمية.

كذلك أشار ابن خاتمة الى علامات أخرى مميزة للطاعون منها ارتفاع قوّة النبض والحمّى المصحوبة بالتشحنج والاحساس بالبرودة في الأطراف واسوداد اللّسان وانتفاخ اللّثة.

هذه مجموع الأوصاف التي تقدّمها مصادرنا وهي في أغلبها أوصاف للطاعون الغددي، على أنّ بعض هذه الأوصاف ينطبق على أنواع أخرى من ذلك نفث الدّم، والحمّى الشديدة وهما من خصائص الطاعون الرئوي.

أمّا الاغماء والاضطرابات العصبية فهي من مواصفات الطاعون التسممّي وقد أشار ابن خاتمة اليها. ومصادرنا تعطي عادة أوصاف نوعي الطاعون الشديدي الانتشار ونعني بهما، الطاعون الغددي والطاعون الرئوي.

الاّ أنّ ابن حجلة يذكر أربعة أنواع من الطواعين:(33)

1- طاعون ذا غدد تخرج في المغابن.

2- طاعون ذا غدد تخرج في أيّ عضو من البدن.

3- طاعون يطفي الروح، الذبحة (الرئوي)

4- طاعون يصيب عضو فيتآكل: مفعوله يمثال مفعول الجذام (التسممّي).

وكان الطاعون الدملي وتسمية المصار أحيانا الغددي أو الخراجي أكثر الطواعين انتشارا، على أنّ الطاعون الرئوي كان يخافه النّاس وكان حدوثه يثير الرعب والفزع الشديد، لأنّ الاصابة به تعني الموت المحقق كما أشار الى ذلك ابن أبي حجلة بقوله: "انّه يتبع أهل الدّار فمن بصق أحد منهم دما تحققوا كلهم عدما".(34)

---

32. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 8 أ.
33. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 8أ-8ب.
34. ابن أبي حجلة، *دفع النقمة*، ورقة 107ب.

أمّا ابن حجر فيذكر: "وبعضهم يحقن دما فيحر ميّتا".

وإذا كان ثلثا من يصابون بالطاعون الغددي يهلكون فانّ من يصاب بالطاعون الرئوي لاينجو منه الاّ في حالات نادرة جدًا.

2)في أسباب الطاعون: أغلب مصادرنا تعطي الطاعون نوعين من الأسباب:

* أسباب سماويّة شرعية.
* أسباب أرضية طبيعية.

أورد ابن حجر أنّ الوباء ينشأ من فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية وأرضية. على أنّ الأسباب الشرعية السماوية نستطيع تقسيمها الى ثلاثة أنواع من الأسباب:

أ) **أسباب فلكية:** منها كثرة الشهب والرجوم في آخر الصيف، وكثرة الجنوب والصبا في الكانونين واذا كثرت علامات المطر في الشتاء و لم تمطر.

ب) **أسباب سحرية:** وتتمثل في ارجاع الطاعون الى سهام ترميها الجنّ، وابن حجر العسقلاني يورد سلسلة من أحاديث الرّسول في هذا المعنى، وهذا التفسير السحري الغيبي يرجع الى الأساطير العربية التي سبقت الاسلام وقد تبناها فيما بعد الكتاب المسلمون بل انّ جلّ الفقهاء يرون أنّ طعن الجنّ هو السبب الحقيقي للطاعون وهو الذي جعل الطاعون يختلف عن سائر الأوبئة.

ج) **أسباب أخلاقية:** منذ العصور القديمة رأى الانسان في الطاعون وغيره من الكوارث الطبيعية عقاب وانتقام القوى الغيبية من الانسان. وفي العقيدة الاسلامية نجد استمرار لهذا المفهوم مع شيء من التغيير. فأحاديث الرّسول تتحدث عن الطاعون على أساس أنّه رجس وعذاب على الكافرين، وقد أرسل لمعاقبة أمم سابقة. ولكنّ هذا الرجس والعذاب أهلك المقاتلين المسلمين أنفسهم. ولحل هذا التناقض جاءت النصوص الدينية لتؤكد أنّه رحمة وشهادة للمسلمين. لذلك يبدو الطاعون في النصوص الاسلامية الكلاسكية ذا وجهان: رجس وعذاب على الكافرين، رحمة وشهادة للمؤمنين.

إذا فالسبب الحقيقي للطاعون بقي مجهولا تماما لدى الأطباء والمفكرين العرب مثلما هو الأمر بالنسبة لسائر مفكري القرون الوسطى.

وحتّى الوسطاء (Les agents vecteurs) التي تنقل جرثومة الطاعون أو عصية يارسين (La bacille de Yersin) لم يقع التفطن إليها، ونعني بالوسطاء الفئران، الجرذان البرية، البق، البرغوث، القمل وغيرها من الحشرات المروّجة للطاعون بين الانسان.

وبالرغم من أنّنا لانجد في المصادر العربية التي ترجع الى القرون الوسطى حديثا عن الأسباب الحقيقية للطاعون فانّنا في الكثير من الأحيان نجد ذكرا للعدوى، وقد ترددت المواقف بين النفي والاثبات، أمّا الموقف الأوّل الذي ينفي العدوى فيعتمد في ذلك على النصوص الشرعية التي تنفي العدوى نفيا تامّا، ومن هذه النصوص قول الرّسول: " لاعدوى ولاهامة ولا طيرة وفرّ من المجذوم كفرارك من الأسد".

النصوص الدينية التي تنفي العدوى توصي مع ذلك باجتناب الاختلاط بين سكان المناطق المصابة والمناطق السليمة، وذلك بالنهي عن الخروج من البلد الذي نزل به الطاعون أو القدوم إلى البلد المصاب بالطاعون.

هذا الموقف الذي يعتمد على النصوص الدينية يقابله موقف أكثر عقلانية، يقرّ بوجود العدوى ونجد هذا الموقف واضحا خاصّة في مصادرنا الأندلسية. فابن خاتمة بعد أن تحدث عن العدوى عن طريق الهواء ذكر أنّه لاحظ أنّ الموت أقل في المدن التي لاتسمح للمسافرين القادمين اليها من جهات أخرى بدخولها زمن الطاعون.

أمّا ابن الخطيب فهو أكثر حسما في الاقرار بالعدوى، بل أنّه يحمل على كل من ينكرها بشدّة، اورد "أنّه لاينكر العدوى الا أحد رجلين، أمّا منافق يقول بلسانه ما لا يعتقد بقلبه وامّا جاهل ماحضر وباء قط"(37). ثمّ يخصص جزءا هامّا من رسالته "مقنعة السائل عن المرض الهائل" لاثبات العدوى يقول: "فان قيل كيف نسلّم دعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك، قلنا وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحسّ والمشاهدة والاخبار المتواترة وهذه مواد البرهان، وغير خفيّ عمّن نظر في هذا الأمر أو ادركه هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالبا وسلامة من لايباشره كذلك، ووقوع المرض في الدّار والمحلّة لثوب أو

37. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص8.

آنية حتى أنّ القرط أتلف من علق باذنه وأباد البيت بأسره. ووقوعه في المدينة في الدّار الواحدة ثمّ اشتعاله منها في افذاذ المباشرين ثمّ في جيرانهم وأقاربهم وزوّارهم خاصّة حتى يتّسع الخرق، وفي مدن السواحل المستصحبة حال السلامة الى أن يحل بها في البحر من عدوة أخرى قد شاع عنها خبر الوباء، وحل موبف، فيكون تاريخ ظهور المرض بها مقارنا لحلوله. وسلامة الكثير ممن أغبى في التوحش كالزاهد ابن أبي مدين بمدينة سلا، وكان من القائلين بالعدوى وقد تزوّد لمدّة وبنى باب منزله على أهله وهم كثيرون، وفنيت المدينة و لم يرزأ نسمة واحدة بطول تلك المدّة. وتواترت الأخبار بسلامة أماكن لاتطاها الطرق ومنقطعة عن النّاس. ولا أعجب لهذا العهد من سجن الأسرى من المسلمين انقذهم اللّه بدار صنعة اشبيليّة وهم ألوف لم يصبهم الطاعون وقد كاد يستأصل المدينة".(38)

بعد أن تعرضنا للموقفين: موقف الفقهاء الذين نفوا العدوى وكذلك الطب الرسمي الذي ينطلق من العقائد الدينية ويقابله موقف بعض المفكرين الذين أثبتوا وجود العدوى بما لايدع مجالا للشك، نتساءل عن موقف عامة النّاس وموقعهم بين هذين الموقفين؟

كان موقف عامة النّاس يتميز بالغموض والتأرجح بين هذين الموقفين، فهم وان اقتنعوا بوجود العدوى ويتجلى لنا ذلك من خلال العديد من الممارسات التي سوف نتحدث عنها في الفقرة التالية وكذلك حتى من خلال الافتاءات الفقهية (سئل أحد فقهاء المغرب عن ثوب الميت بالطاعون هل هو معيب أم لا)(39)، مع ذلك بقي فعل العدوى غامضا في أذهان النّاس وازداد هذا الغموض تحت تأثير الفقهاء ممّا جعل المواجهة والتصدي للطاعون يمتاز بكثير من السلبية.

3-في مواجهة الطاعون والأوبئة:

يتميز الموقف السائد في المجتمع المغربي وسائر المجتمعات الاسلامية بالاستسلام للطاعون على أساس أنّه قضاء لامفرّ منه، وقد برّر هذا الموقف التفسير السحري الديني الذي يجعل الطاعون طعن جنّ ليس بمقدور الانسان مواجهته، وتدعّم هذا الموقف السلبي نظرا لعجز الطبّ عن ايجاد دواء لهذا الوباء. وقد نصح الفقهاء بالاستسلام له والصّبر عليه وانتظار

---

38. ابن الخطيب، *مقنعة السائل*، ص 6-7.
39. الونشريسي، *المعيار*، فاس، 1315ه، ج3،ص27.

الشهادة يقول ابن حجر: "وهذا الطاعون أعيا الأطبّاء دواؤه حتى سلم حذاقهم ان لا دواء له ولا راجع له الاّ الذي خلقه وقدره"(40).

أ) **الاجراءات الطبّية:** ولكن ليس من السهل أن يستسلم الانسان للموت فلا أقلّ من أن يخبّط ويواجه الطاعون بأدوية متنوّعة لاتدل الا على الغموض الذي يعنيه هذا الوباء في أذهان النّاس "فلو رأيت الاعيان وهم يطالعون من كتب الطبّ الغوامض، ويكثرون في العلاج من أكل النواشف والحوامض، قد تنغّص عيشهم الهنيء بملاطخة مسلم الطينة الطم الارمني، وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدّل. وبخّروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعة والصندل، وتختموا بالياقوت وجعلوا البصل والخلّ والطحينة من جملة القوت، وأقلّوا من الأمراق والفاكهة وقربوا اليهم الاترج وما شابهه"(41). وقد كان ابن سينا أهمّ مصدر يعتمد لمعرفة الأدوية التي تستعمل لمعالجة الطاعون وقد أوصى بالدواء بطرق مختلفة ذكر ابن حجر العسقلاني(42) أهمّها:

1- ملازمة السكون والدعة وترك الرّياضة.

2- الفصد والاستفراغ للتخلص من الدم الفاسد.

3- تقوية القلب بالمبرّدات والمعطّرات.

4- التبخر بالكافور والسّعد والصّندل والمسك والعود والعنبر.

ب) **الاجراءات الدينية:** على أنّ هذه الاجراءات الطبّية كانت تقابلها مجموعة من الاجراءات الدينية كانت أكثر انتشارا لأنّها في متناول الجميع ويعتقد عامّة النّاس أنها أكثر نجاعة وكما يقول ابن حجر العسقلاني "التداوي بالادعية أنجع من التداوي بالعقاقير"(43).

وأول هذه الأدعية التي تجنب الاصابة بالطاعون مجموعة من الاذكار أوردها ابن حجر تحرس قائلها من كيد الجنّ. امّا الشافعي فيوصي في الحلية بالتسبيح اذا حلّ الطاعون لأنّ التسبيح يرفع العقوبة والهلاك.(44)

---

40. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 9أ.
41. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 75ب.
42. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 67أ.
43. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 60أ.
44. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 24أ.

على أنّ بعض الادعية والصلوات أثار نقاشا حادا وجدلا بين الفقهاء حول مشروعيتها خاصّة أن بعضها استحدث زمن كثرة الطواعين في القرنين 8 و 9هـ/ 14 و 15م ولايستند الى تراث العصر الاسلامي الأوّل. من ذلك الصلاة الجماعية والخروج الى الصّحراء للدّعاء برفع الطاعون وقد رفض الفقهاء هذه الصلاة لكونها بدعة وذلك خصوصا بعد أن لاحظوا أنّ التجمع للصلاة كثيرا ما ينتج عنه انتقال المرض من المرضى الى الأصحّاء وارتفاع عدد الهلكى ممّا يشكك في نجاعة التداوي بالادعية والالتجاء الى الصلاة. وربّما صام النّاس أيّاما للّه لعله يرفع الطاعون، وهو اجراء مستحدث لايستند الى النّصوص التقليدية.

أمّا ابن أبي حجلة فقد ألفّ كتابه عن الطاعون أساسا ليبيّن أنّ أفضل وسيلة لرفع الطاعون هي الصلاة على الرسول في مقدمة كتابه يقول: "ولم أر ما يدفع خطبه المهول مثل الصلاة على الرسول". وكتابه: "ردّ عمّن رأى في التداوي بالصلاة على الرّسول بدعة مرفوضة"(45). كذلك استغل الفقهاء الطاعون والمآسي التي يحدثها والأثر العميق الذي يتركه في نفوس النّاس للدعوة الى احترام القيم الدينية وترك كل المخالفات بل ذهبوا الى أكثر من ذلك ففسروا الطاعون بكونه عقاب الاهي مسلّط على النّاس بعد أن كثر بينهم الفساد وانتشرت في أوساطهم المنكرات.

وشدّد الفقهاء على مخالفتين هما الزّنا وشرب الخمر يقول ابن حجر العسقلاني: "وممّا ينبغي المبادرة اليه ردّ المظالم والتخلص من التبعات والتوبة من العودة الى شيء من معصية اللّه تعالى والنّدم على ما مضى من ذلك".

ج) **الاجراءات الاجتماعية:** قبل أن نختم الحديث عن الطاعون نذكر مجموعة من العادات والتقاليد المغربية التي تلعب دورا هامّا في نشر الوباء ومع ذلك كان المغاربة يحرصون على القيام بها. من هذه العادات:

*زيارة المصاب.

* السهرة الجماعية لتوديع الهالك.

* تغسيل الميّت.

* تشييع جنازته والصلاة على جثمانه قبل قبره.

---

45. ابن أبي حجلة، دفع النقمة، ورقة 3أ.

من خلال النصوص التي لدينا يتبيّن أنّ بعض الأطباء والمفكرين تفطنوا الى خطورة زيارة المريض المصاب بالطاعون من هؤلاء ابن الخطيب الذي يرى أنّ الطاعون من جملة من يصيب زوّار المريض(46). كذلك ذكر ابن حجر العسقلاني أنّ مجموعة من الأطبّاء نهوا من مخالطة من أصابه الطاعون ممّا دفع العامّة الى أن تمتنع عن عيادة المطعونين، ويرفض ابن حجر هذا الرأي ويدعو النّاس الى زيارة مرضاهم واحترام التقاليد الاسلامية التي توصي بزيارة المريض(47). ويتبين من خلال النصوص أنّه لم يقع عزل المصابين بالطاعون بل على العكس من ذلك كانت تتكاثر عليهم الزيارات نظرا لقوة الروابط العائلية القريبة والبعيدة في مجتمع حافظ على هياكله القبلية، وكذلك لقوة التقاليد الدينية. وقد كانت هذه الزيارات بدون شك تساهم في نشر الوباء.

من ناحية أخرى لعبت مجموع الشعائر الجنائزية دورا هامّا في نقل العدوى بين أفراد المجتمع ومن ضمن هذه الشعائر السهرة الجماعية حذو الهالك المطعون لتوديعه وهي مناسبة لنقل المرض الى مجموع الساهرين وكذلك غسل الميّت وقد لاحظ الأطبّاء الفرنسيين الذين عالجوا حالات الطاعون بتونس في أوّل هذا القرن أنّ هذه العملية وسيلة أكيدة لنقل العدوى الى من يقوم بالغسل(48). ومن هذه الشعائر ايضا تشييع الجنازة والصلاة الجماعية على الميّت التي كانت تعتبر هي الأخرى فرص لانتقال المرض من المرضى الى الأصحّاء.

نستخلص من كل هذا أن المجتمع المغربي واجه هذه الأوبئة بمجموعة من الاجراءات طبيّة، دينية واجتماعية فشلت في الحدّ من انتشار الطاعون بل ساهم بعضها في ترويجه.

والملاحظ أنّ الطاعون ليس له نفس الوقع على سائر الفئات الاجتماعية فهو كما ذكر ابن الخطيب: "في الضعفاء وأهل الشظف افتك"(49) ويفسّر هذا التفاوت أمام الموت: "ان قيل لأي شيء يكرّر وقوعه في أهل الشظف، قلنا لأمور منها أماكن المباشرة لمظانه من

46. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص7 .

47. ابن حجر العسقلاني، *بذل الماعون*، ورقة 67.

48. Bloch Edouard, *La peste en Tunisie : Aperçu historique et épidémiologique*, Tunis, 1929.p.101-102

49. ابن الخطيب، مقنعة السائل، ص 9.

المرضى والجنائز والأثواب والالات، ومنها ضيق المساكن والتراكم وسوء التدبير، وعدم التحفظ، وقلّة التيقظ لفشو الجهل وعدم العلم بهذه الأمور في طبقات اللفيف"(50).

وتذكر المصادر أنّه زمن الطاعون يترك بعض الأغنياء المدينة الى مزارعم وبساتينهم من ذلك عادة الملوك الحفصيين بترك القصبة وسكنى باردو زمن الطاعون(51). وحتى الزهّاد ذوي الامكانات الواسعة يغتنمون فرصة انتشار الطاعون ليتفرغوا أكثر للتعبد والزهد وقد ذكر ابن الخطيب "سلامة الكثير من أغيى في التوحش كالزاهد ابن أبي مدين، بمدينة سلا، وكان من القائلين بالعدوى وقد تزّود لمدّة، وبنى باب منزله على أهله وهم كثيرون، وفنيت المدينة و لم يرزأ نسمة واحدة بطول تلك المدّة"(52).

الخاتمة

تتفق جلّ الدّراسات على أنّ عام 749هـ/1348م هو السّنة التي شهدت ولادة الطاعون في الحوض الغربي للبحر المتوسّط.لذلك يعتبر القرن 8 هـ/14م بداية مرحلة جديدة في تاريخ الطّاعون والأوبئة بالمغرب الاسلامي الوسيط وذلك لأنّ هذا الوباء الذي تميّز بالشدّة والشّمول كان منطلق لسلسة من الطواعين الّتي استمرت حتى القرن 12 هـ/18 م وكانت لذلك أعظم النتائج على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسّكاني للمنطقة.

والطاعون الاعظم الذي كان مصدرا لهذه الاوبئة كلّها هو عبارة عن التقاء بين انواع الطواعين الثلاث: الغدديّة الرئويّة والتسمية وقد اكتسح هذا الطاعون المنطقة طيلة عدّة سنوات بين 749 و 751 هـ/1348 و 1350م واحدث بعد ذلك تواتره رعبا كبيرا لدى عامّة النّاس إذ يكاد كل جيل من الاجيال الّتي نشأت بعد هذا التّاريخ قد شهده مرّة في حياته على الاقل. لذلك تأثّرت ثقافة مجتمعات هذه العصور وعقليّاتها شديد التّأثر بهذا الدّء العضال، وانقسم ادراك النّاس لهذا الوباء وتفاعلهم معه الى نوعين:

ادراك أوّل ديني سحري يقف موقفا سلبيّا من الوباء. ونجد صداه في مؤلفات ابن ابي حجلة وابن حجر العسقلاني، تقابله تصوّرات عقلانيّة تجريبيّة تولّدت عنها نظريّة الاقرار بالعدوى ويتجلّى ذلك في كتاب ابن الخطيب وابن أبي خاتمة حول هذا الموضوع. وخلال

---

50. ابن الخطيب، *مقنعة السائل*، ص 11
51. الزركشي محمد بن ابراهيم، *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*، تونس 1966، ص 147.
52. ابن الخطيب، *مقنعة السائل*، ص 7

مواجهة الطاعون نتج عـن هـذا الادراك (سواء منه الدّيـني السّحري او العقلاني التجريبي) سلوك متميّز. ذلك انّه بانعدام المقاومـة الجماعيّة للوبـاء خـلال هـذه العصـور، فـإن المواقـف الفرديّة كانت تـارة سـلبيّة تميّزت بالاستسـلام للطـاعون والقبـول بـه وتـارة اخـرى اتّصفـت بالصّمود والمقاومة باستعمال ادوية ليس لها أي نجاعة في القضاء على المرض او بتفاديـه وذلـك بالانعزال واجتناب مواطن العدوى.

البيبليوغرافيا

- ابن بطوطة، 1964، *الرحلة*، بيروت.
- ابن خاتمة، أحمد بن علي، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، مخطوط الاسكوريال رقـم 1785، هذا النص ترجم جزئيا إلى الألمانية:

Dinânah Taha; 1927 "Die Schrift Von Abî Ja'far Ahmed ibn 'Alî ibn Khâtimah aus Almeriah über die pest" in K. Sudhoff et H.E Sigerist, *Archiv für Geschichte der Medizin*, vol 19 pp. 27-81.

- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد : *مقنعة السائل عن المرض الهائل*، مخطوط الاسـكوريال رقـم 1786، نشرة

Müller M.J 1863, "Ibnulkhatîb's Bericht über die Pest." in *Sitzungsberichte der Konigl. Bayerischen Akademie der Wissenschaften zu München*, Part2, p.1-34

- ابن الخطيب أبو عبد الله محمد، 1928، *الاحاطة في أخبار غرناطة*، 2 ج، القاهرة.
- ابن خلدون، عبد الرحمان 1967–1968 *كتاب العبر*، 7 أجزاء، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- ابن خلدون، أبو زكرياء يحي، 1910، *كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد*، الجزائر.
- ابن حجر، أحمد، *بذل الماعون في فوائد الطاعون*، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس رقـم 569.
- ابن غازي، أبو عبد الله محمد، 1964، *الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون*، الرباط
- ابن الشماع، أبو عبد الله محمد بن أحمد، 1984، *الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية*، تونس.
- ابن قنفد القسنطيني، أبو العباس أحمد، 1965، *أنس الفقير وعز الحقير*، الرباط.
- ابن قنفد القسنطيني، أبو العباس أحمد، 1968، *الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية*، تونس.
- ابن قنفد القسنطيني، أبو العباس أحمد، 1983، *كتاب الوفيات*، بيروت.
- ابن مريم أبو عبد الله محمد، 1908، *البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان*، الجزائر.
- الأبي، أبو عبد الله محمد، 1902، *إكمال الاكمال*، القاهرة.
- الزركشي محمد بن ابراهيم، 1966، *تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية*، تونس.
- السراج، الوزير محمد بن محمد الأندلسي، 1984، *الحلل السندسية في الأخبار التونسية*، 3 أجزاء، بيروت.
- السعداوي أحمد، 1983، "المجاعـات والأوبئة في تـاريخ الغـرب الإسـلامي الوسيط"، *الديموغرافية التاريخية في تونس*، ص 27–48، تونس.
- التنبوكتي، بابا أحمد، 1911، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، 3 أجزاء، القاهرة.
- المقريزي أحمد بن علي، 1958–1962، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة.

النباهي، أبو الحسن بن عبد الله، 1948، تاريخ قضاة الأندلس، القاهرة.

- L'Africain, Jean-Léon. 1956, *Description de l'Afrique*, 2 vol. Paris.

- Antuna, M.M., 1928, "Abenyatima de Almeria y su tratado de la peste", *Religion y cultura*, Madrid, vol. I, N°4 , p.68-90.
- Biraben, Jean Noël, 1975-1976, *Les hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranéens*, 2t., Paris.
- Bloch Edouard, 1929, *La peste en Tunisie (aperçu historique et épidémiologique)*, Tunis.
- Bowsky, W.M., 1971, *The Black Death: A Turning point in History?*, New York.
- Brunschvig Robert, 1936, *Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^e sciècle Abdalabsit b. Halil et Adorne* - Paris.
- Brunschvig Robert, 1941-1947, *La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines à la fin du XV^e sciècle*, 2 vol. Paris.
- Conrad Lawrence, 1981,"Arabic Plague chronologies and treatises: social and historical factors in the formation of literary genre", *Studia Islamica*, 54, p.51-93.
- Daniel, Williman, (éd.), 1982, *The Black Death, the impact of the foorteenth-century plague*. New York.
- Dols W. Michael, 1977, *The Black Death in the Middle East*, Princeton.
- Levi- Provençal Evariste,1931, *Inscriptions arabes d'Espagne*, Paris.
- Marchika, Jean, 1927, *La peste en Afrique Septentrionale: histoire de la peste en Algérie de 1363 à 1830*, Alger.
- Panzac Daniel, 1985, *La peste dans l'Empire Ottoman (1700-1850)*, Louvain.
- Semmach Y. 1934, "Une chronique juive de Fez", *Hespéris*, t XIX p.79 - 94.
- Shoshan Boaz, 1981,"Notes sur les épidémies de Peste en Egypte", *Annales de Démographie historique*, p.387-407.
- Sublet, Jacqueline, 1971, "La peste prise aux rêts de la jurisprudence: Le traité d'Ibn Hagar al-'Asqalani sur la peste", *Studia Islamica*, vol. 33, Paris, p.141-149.
- Verlinden Charles, 1938, "La grande peste de 1348 en Espagne", *Revue belge de philologie et d'histoire*, XVII, p.103 -146, Bruxelles.
- Wiet, Gaston, trad., 1962, "La Grande Peste Noire en Syrie et en Egypte", *Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal*, vol. 1, Paris, p.367-384.
- Ziegler, Philip, 1991, *The Black Death*, Strond (G.B.).